مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب

Issn : 2572- 0058 / E- Issn : 2676 - 1696

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 09العدد: 02 جوان (2025) ص 528 / 541

سيميائية الشخصية في رواية "كامارد" للزيواني ودورها في التعريف بثقافة الإفريقي. دراسة سيميائية

The semiotics of the character in Ziouani's novel "Kamarad" and its role in introducing African culture. Semiotic study

خليفه قانه *

جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر).

مخبر وحدة البحث والتكوين في نظريات القراءة ومناهجها

khalifa.gana@univ-biskra.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2024/04./25

تاريخ القبول: 2025/ 05 /29

الكلمات المفتاحية:

- ✓ سيميائية الشخصية
- ✓ ثقافة الإفريقي
- ✓ الخطاب السردي

الملخص:

إذا كانت نواة الأسرة والمجتمع هي الفرد، فنواة الخطاب السردي إنما هي الشخصية التي تمثل في الرواية العمود الفقري ، فحولها يتمحور العمل السردي، ولها تخضع رقاب سائر مقومات السرد الفنية من السرد والزمان والمكان والأحداث والحوار، ومهما يكن من أمر فللشخصية علاقة وطيدة بالحياة الواقعية وارتباط وثيق بالمجتمع الذي خرجت منه، ومن هذا المنطلق تبلورت إشكالية هذه الدراسة والمتمثلة في مدى مقدرة مقاربة "سيميائية الشخصية" في رواية "كامارد" للزيواني على الكشف عن ثقافة الانسان الإفريقي، كون الشخصية علامة سيميائية متضمنة ثنائية الدال والمدلول.

وقد رامت هذه الدراسة استنادا الى المنهج السيميائي المدعم من المنهج الوصفي إماطة اللثام عما تنطوي عليه الرواية الجزائرية من جدة على مستويات: الموضوع والمضمون والتقديم،

* المؤلف المرسل

وإبراز ملامح ثقافة الأفارقة انطلاقا من رواية "كاماراد" التي سـلطت الضـوء على ظاهرة الهجرة غير النظامية، والوقوف على الأنساق الثقافية المضمرة المتوارية خلف المدلولات السيميائية.

Article info

Received 25/04./2024

Accepted 29/ 05/2025

Keywords:
- ✓ *Semiotics of character.*
- ✓ *African culture*
- ✓ *narrative discourse*

Abstract :

If the nucleus of the family and society is the individual, then the nucleus of the narrative discourse is the character, to which all the technical components of the narrative are linked: narrative, time, place, events and dialog, in addition to its close relationship with real life and society. The issue of this study is the extent to which the approach of "the semiotics of the character" in the novel "Kamarad" by Al-Zewani is able to reveal the culture of the African man, because the character is a semiotic sign that includes the duality of the signifier and the signified.

This study aimed to uncover the renewal of the Algerian novel in terms of theme, content, and presentation, and to highlight the features of African culture based on the novel "Kamarad", which dealt with the phenomenon of irregular migration, and to identify the implicit cultural patterns hidden behind the semiotic meanings

. مقدمة:

تعرف الساحة الأدبية في الجزائر تحولا ملحوظا نحو الرواية التي أضحت ديوان العرب في العصر الراهن، فإليها شدت رحال كبار الكتاب ذوي الأقلام المتميزة المتوهجة الذين سعوا بكل ما أوتوه من براعة وموهبة إلى الكشف عن أغوار الحياة المعاصرة واستكناه أسرارها ومعالجة مختلف أدوائها وقضاياها مستعينين بالخطاب السردي الشيق الماتع لتقريب صورة الواقع المعيش إلى جموع الجماهير المتعطشة لمعرفة كيفية تعاطي الروائيين مع شتى المشكلات الراهنة ذات الارتباط الوثيق واللصوق الشديد بحيوات الناس ويومياتهم.

وقد حاكت هذه الأعمال الروائية المائزة واقع الناس المرير المثخن بالآلام والهموم والنوائب، فلخصت متونها واختزلت سطورها مختلف المشكلات التي يعانون منها ويشتكون من وطأتها وشدتها، والتي لطالما اهتموا لها واغتموا، مشكلات عُضال ومآسٍ كبرى قضّت مضاجعهم وأرقتهم، وأحالت عيشهم إلى غم ونكد وشقاء، ناهيك عن تصويرها كل ما يتعلق بمستجدات الحياة المعاصرة، وما يتخللها من تناقضات وتصارعات، ورصدها لشتى ذبذبات الوجود الإنساني سلبا وإيجابا.

وكان أن انفسح المجال واسعا أمام الرواية العربية في الجزائر للتميز والنماء والارتقاء نتيجة تهافت كبار الأدباء الجزائريين ذوي الكعوب العالية على خِطبة ودِّها واقتحام ساحاتها الخصبة الثرية، فخصوها بالعناية ناثرين سحر إبداعهم وجميل كتاباتهم النثرية في قوالبها، لتسجل على أيديهم قفزة نوعية سواء من حيث الكمُّ أو من حيث الكيفُ أو النوع.

إنّ تجاوز الرواية العربية في الجزائر أساليب الكتابة التقليديّة، وارتماءها في أحضان التجريب يعكس رغبتها الحادّة والجادة في لفت انتباه القارئ العربيّ إلى الجديد النوعي الذي تكتنزه متونها، والتأنق في عرض الأفكار والتألق في معالجة مختلف القضايا الراهنة والمشكلات العصية التي تعج بها الحياة المعاصرة؛ إذ هو مطالب كذلك بتجاوز الواقع المألوف الذي عبرت عنه الأعمال الروائية القديمة نوعا ما، وتتبع أساليب تفكير ومناهج تحليل جديدة ما بعد حداثية، تساير رهانات العصر الحالي ليتأتى له فك شفراتها

وقراءتها وفق سياقاتها الثقافية والتاريخية والاجتماعية، وتأويلها على نهج نظريات التلقي والقراءة الحديثة التي تعد المتلقي مشاركا في كتابة النص قبل قراءته، وبهذا استطاعت الرواية العربية في الجزائر احتلال مكانة مرموقة في خريطة الرواية العربية.

وقد عنيت الدراسات السيميائية في الآونة الأخيرة عناية خاصة وفائقة بالشخصية الروائية باعتبارها العمود الفقري للعمل الروائي، ونظرا لما تختزنه من مدلولات سوسيولوجية وإيديولوجية وسيكولوجية، وما ينضوي تحتها من رؤى وأفكار وأنساق ثقافية وأبعاد هوياتية لا تكشف عنها باقي عناصر السرد، ومن هنا تمخضت فكرة هذه الدراسة، وتبلور عنوانها في " **سيميائية الشخصية في رو اية "كاماراد" للزيو اني ودورها في التعريف بثقافة الإفريقي**"، لتطل برأسها إشكالية مقدرة الرواية العربية في الجزائر على التعريف بهوية الآخر(الإفريقي)، وكشفها عن بعض ملامح ثقافته انطلاقا من الحمولة المعرفية والثقافية التي تكتنزها الشخصية الروائية الأجنبية، لتنبثق عنها تساؤلات ملخصة في: كيفية تجسد شخصية الآخر (الإفريقي) في رواية "كاماراد" ؟ وما أبعاد الشخصية الروائية؟ وكيف استطاعت "سيميائية الشخصية" إبراز المضمر من عوائد الإفريقي وتقاليده؟ وعلام اعتمدت من الميكانيزمات لتحقيق ذلك؟

وهدفت هذه الدراسة استنادا إلى المنهج السيميائي المعضد من الوصفي التوصل إلى معرفة بعض ملامح ثقافة الإنسان الإفريقي والتأكيد على نجاعة الرواية عموما ودور الشخصية الروائية خصوصا في الكشف عن ذلك، وإماطة اللثام عن بعض آليات المنهج السيميائي وإجراءاته النوعية.

1. رو اية "كاماراد": الو اقع والمأمول (الظاهروالمضمر):

تعالج رواية **"كاماراد "** رفيق الحيف والضياع للروائي الجزائري الصديق حاج أحمد الملقب بالزيواني قضية بالغة الأهمية والخطورة، قضية الساعة التي تعاني من وطأتها وتداعياتها قارتا إفريقيا وأوروبا اللتان أخفقتا في التقليل من حدتها، ناهيك عن القضاء عليها بشكل كلي ونهائي، وأمام استفحالها وقفت حكومات بلدان ضفتي المتوسط الجنوبية والشمالية عاجزة عن احتواء مخرجاتها والتكيف مع مفرزاتها، ومن ثمَّ التوصل إلى انتهاج استراتيجية ناجعة للتعاطي والتعامل معها، فقد أصبحت تشكل لها هاجسا وخطرا يهددان اقتصادياتها واستقرارها الاجتماعي وأمنها القومي، ما حتم عليها إعادة النظر في أصل هذه الأزمة وأسبابها ودواعيها، وإشراك جميع الأطراف لحلحلتها واقتراح السبل الناجعة وانتهاج السياسات الراشدة والمقاربات الاستراتيجية والمخططات الفعالة للحد من انتشارها قبل فوات الأوان، وقبل أن يتسع الخرق على الراقع، ولات حين مندم.

إنها قضية الهجرة غير الشرعية (الحرقة) التي يقف خلفها حلمُ الأفارقة بالفردوس المفقود، بالنعيم المقيم، وأملُهم في الوصول إلى ضفاف القارة العجوز حيث الحياةُ الكريمة والعيش الرغيد، فتخرج أعداد هائلة من الأفارقة الفقراء من شتى الدول الإفريقية في رحلة مجهولة العواقب محفوفة بالمخاطر نحو الفردوس الأوربي معرضين أنفسهم للهلاك في الصحراء الكبرى التي لا ترحم أحدا.

ورواية **"كاماراد"** تدور أحداثها حول شخصية نيجيرية محورية تدعى **"مامادو"** ، حيث ينطلق البطل في رحلته الشائقة التي لا تخلو من المجازفة والمخاطرة من عاصمة النيجر **"نيامي"** نحو فردوس الشمال، سالكًا أصعب الدروب عبر الصحراء الكبرى مع مهربي البشر للوصول إلى جنوب الجزائر، وقبل أن تطأ قدماه أرض الجزائر يقوم باستصدار جواز سفر مزور منتحلا هوية شخص آخر من جنسية مالية مسيحي الديانة، ليصبح اسمه "كوليبالي "، وهذا ليعبر به حواجز الأمن ونقاط تفتيش الجمارك الموجودة بكثافة في حدود الجزائر الجنوبية، وليتمكن من الانتقال بعدها من جنوب الجزائر إلى شماله وصولا إلى الحدود المغربية، لينطلق في رحلة شاقة أخرى توصله إلى مدينة **"الفنيدق"** المغربية قبالة جيب **"سبته"** الإسبانية محاولا عبور السياج في ليلة عيد الميلاد ليسقط في قبضة الحرس المغربي الذين أعادوه إلى نقطة البدء، إلى بلده النيجر، جارّا خلفه ذيول الخيبة والندم.

تبدأ الرواية بصوت خفي من مهرجان **" كان "** السينمائي الدولي سنة 2012، يسرد خيبة أمل المخرج الفرنسي "جاك بلوز" الذي أخفق مجددا في التتويج بجائزة "السعفة الذهبية"، الأمر الذي دفعه إلى رفع التحدي وعقد العزم على الثأر لنفسه في الدورات

القادمة، فشرع يفكر ويقدر حتى اهتدى إلى فكرة ترسخت بذهنه وحظيت باستحسانه، وهي توظيف هجرة الأفارقة غير القانونية نحو أوربا في عمله السينمائي القادم، جاعلا منها - أي من هجرتهم- فيلما سينمائيا ينافس به على جائزة السعفة الذهبية، فقرر – بداءة- السفر إلى دولة النيجر المعروفة بفقر شعبها المدقع بغرض رصد ومعاينة مختلف مظاهر البؤس والشقاء والحرمان التي يعاني منها الشعب النيجيري الذي يرزح تحت وطأة الجهل والفقر والأوبئة الفتاكة، والاطلاع من كثب على الأجواء العامة للمجتمع الإفريقي.

وفي اليوم الأول من وصوله "نيامي" عاصمة النيجر يعثر على حراق (كامارادي) اسمه **"مامادو"**، عاد هذا الأخير قبل يوم فقط من رحلته الخائبة التي قادته مع مجموعة من أصدقائه الأفارقة نحو قارة الآمال والأحلام، وهذا بعد إخفاقه في اجتياز سياج مدينة **"سبته"** والمرور إلى الأراضي الإسبانية، فيلتقي به ويقدم له عرضا مغريا متمثلا في سرد مامادو قصة رحلته نحو الفردوس عليه مقابل مبلغ معتبر من المال، ورحَّب **مامادو** بالفكرة وقبل بالعرض عن طيب نفس، مغتبطا بالمال الوفير الذي سيجنيه بمجرد سرد أحداث رحلته الشائقة المثيرة على هذا المخرج، وأطلق الروائي على هذا الفصل اسم **"G يتار الصدفة"**.

وقد قسم **"مامادو"** رحلته إلى خمسة فصول، يحمل كل فصل منها عنوانا مستوحى من أهوال القيامة ليدل على شدة ما لاق وعانى في هذه الرحلة الشاقة، وهي كالآتي:

1.1- "في القبر":

أطلق هذا الاسم على مرحلة فقره بالحي الشعبي بـ**"نيامي"**، وطريقة عيشة مع عائلته وأصدقائه كما تحدث عن الأوضاع المزرية في نيامي عاصمة النيجر، ويحمل هذا العنوان عديد المدلولات الاجتماعية والثقافية، فمن الاجتماعية العوزُ الشديد وشظف العيش وسوء أحوال المعيش وتدهور الأوضاع الاجتماعية والعذاب والضياع والتضييق والتهميش وهضم الحقوق، ومن الثقافية يبرز إيمان الإفريقي بوجود حياة في القبر، فالقبر أول منازل الآخرة قد ينعم فيه الميت كما قد يعذب، وما بعده أهون على المرء، غير أن **"مامادو"** استخدمه للدلالة على المعاناة والمقاساة والألم وما كان يعيشه في حي **"G مكلي"** من صنوف العذاب والهوان والحرمان.

1. 2 - **"البعث"**:

وهي مرحلة مجيء فكرة الخلاص "الهجرة "، بعد محادثة رفيقه **"إدريسو"** مع صديقة **"إبراهيما"** المتواجد في تمنراست عبر الفايسبوك، ولمفردة البعث حضور قوي في ثقافة المسلمين الذين يؤمنون بفكرة بعث الروح والجسد عند نفخ إسرافيل في البوق نفخة البعث، فيُبعث الناس من لحودهم ويقومون للحساب، ويعد هذا دليلا على إسلام **مامادو** وتصديقه بما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأخبر عنه في ما تعلق بالبعث والنشور والحساب.

1. 3 - **"النفخ في الصور "**:

وهي المرحلة التي ارتبطت بمحاولة إقناع **"مامادو"** أمه ببيع البقرة الوحيدة التي تملكها أسرته، هذه البقرة التي كانت تعتبر مصدر رزق العائلة الأوحد، ليتزود بثمنها في سفره، كما تحدث عن تحضيرات رفاقه الثلاثة للهجرة، واقتنائهم مستلزمات الرحلة واستعدادهم لها، ولهذا العنوان رمزية تؤشر على ديانة **"مامادو"** الذي يدين بالإسلام، ويعتقد بالنفخ في الصور وهو حدث غيبي حدثنا عنه رسول الإسلام وجاء ذكره في القرآن الكريم كذلك، والصور هو البوق الذي سينفخ فيه الملك إسرافيل نفخة الصعق ونفخة النشور أو البعث.

1. 4- **"المحشر"**:

تحدث في هذه المرحلة عن وداع الرفاق لأهليهم وأصدقائهم، وخروجهم متجهين نحو مدينة (**أدز**) التي تعد ملتقى طرق الهجرة، ثم ذهابهم باتجاه مدينة **"أرليت"** حيث سيلتقون بالطوارق المهربين الذين سيقلونهم نحو جنوب الجزائر. ومفردة المحشر تحمل هي الأخرى مدلولا ثقافيا دينيا، فهي أرض يحشر فيها الخلائق أجمع غدا يوم القيامة استعدادا للحساب.

1. 5- "**على الصراط** ":

وهي المرحلة التي قطعها رفقة أصدقائه مع المهربين في الصحراء الكبرى(من نيامي إلى تمنراست ثم إلى أدرار)، وفيها صوَّر ما وقع لهم أثناء هذه الرحلة المميتة.

وكما هو واضح، فهذه العناوين كلها مستوحى من أهوال القيامة، وهي تدل على ثقافة الأفارقة وخاصة من كان منهم من دولة النيجر، حيث يحضر الوازع الديني بقوة في قلوبهم فينعكس على ألسنتهم، ويؤشر هذا التوظيف على اعتقاد الأفارقة وإيمانهم بكل ما جاء من حقائق غيبية جاء ذكرها في القرآن والسنة، وبذلك فثقافة الإفريقي تمتاح من معين الإسلام وقد انكشف ذلك من خلال استعانة "**مامادو**" بمراحل أهوال القيامة في الاصطلاح على أهوال رحلته.

تنتهي الرواية بعودة "**مامادو**" بخفي حنين خائبا إلى حيّه "**Gملكي**" في نيامي، وبعد لقائه بالمخرج جاك بلوز وسرد حكاية هجرته عليه، لمس فيه هذا المخرج مهارة في السيناريست وحبا كبيرا للكاميرا؛ ولهذا شجعه على إخراج فيلم عن الفقر في بلده، بمساعدة منه، وذلك من خلال تزويده بالمال وتعليمه كواليس الحرفة، وقد كان ذلك بعد إتمام "**مامادو**" لفيلمه الذي روج له المخرج من خلال منشور على صفحته الفايسبوكية

"أيها الشمال القانط من الجنس الكامارادي الزاحف ....

أيها الجنوب العربي، المتذمر من عبور شعب ليكاماراد ...

لا محل لنا من أخطبوط الهجرة ...إلا بخلق فرص نشاط، تثبت هؤلاء الأفارقة المتعبين بخيبات الحياة وانكساراتها ببلدانهم...

لن ولن نوقف هذا التدفق المريب، إلا بفعل ذلك ..

شاب نيجيري واعد..لاقتني به الصدف، هو يحلم بالشمال حيث النعيم والخلاص وأنا أحلم بالجنوب حيث الحرمان والخلاص...مفارقة غريبة جمعتني به !!

اسمه مامادو كله حيوية ونشاط.. عنده حكي عفوي عجيب ووصف رهيب.. " (أحمد، 2016، صفحة 362) .

ويكمن الهدف من هذه النهاية التي وضعها الزيواني في أن الحلم بجنة النعيم والفردوس الحقيقي حلم مكفول ومقبول لأنه أمر فطري في الإنسان الذي جبل على البحث عن الأفضل والسعي لتكريس الأمثل لنفسه ولأفراد عائلته، غير أن هذه المطامح قد يجدها الفرد في أرض وطنه وسط أهله وشعبه دون الحاجة إلى الهجرة من أجلها إلى البلدان الأخرى الأجنبية، وتعريض نفسه للهلاك جوعا وعطشا بقطعه الفيافي والقفار الموحشة التي لا تحابي أحدا.

2. **الشخصية وأهميتها في العمل السردي:**

تعد الشخصية واحدة من أهم عناصر السرد في العمل الروائي، تتحدد ملامحها الثقافية من خلال الأحداث التي تقوم أو تساهم فيها، لكونها علامة سيميائية بارزة ومؤثرة في المكون السردي، تسهم في تحريك عجلة أحداث الرواية وتكريس الصراع وتأجيجه والوصول بتأزم الأحداث إلى الذروة، وهي - بلا ارتياب- بؤرة العمل الروائي ونواته.

كما أن الشخصية هي من تتولى بناء الأحداث وتحريكها ضمن حبكة معينة يضعها الروائي، فضلا عن إدارتها الحوار بنوعيه: الديالوج والمونولوج، وتجسيد الأفكار ومعالجتها، ووصف العواطف المتباينة واستثارة بعضها في نفوس القراء، وتعميق الصراع الدرامي، وإضفاء الديناميكية والحيوية على العمل الروائي، وترسيخ مبدأ التعددية على مستوى الأفكار والمشاعر والمواقف والتفاعلات.

وتعكس الشخصية الروائية مستويات الثقافة المختلفة لأفراد المجتمع، وتبرز مختلف ملامح هويتهم، وتعنى المقاربة السيميائية بالكشف عن شتى الوشائج التي تجمع بين أفراد المجتمع والتي تشكل في جملتها ملامح ثقافية وهوياتية، والشخصية في الرواية هي من تضبط إيقاع السرد، ولها سلطة وهيمنة على سائر عناصر الرواية الفنية المعروفة بما فيها الزمان والمكان والأحداث والوصف والحوار، وليس من المبالغة في شيء القول: إن الرواية هي فن الشخصية أو إن الشخصية هي فن الرواية، حيث لا يمكن تصور رواية

دون شخصيات، ولا وجود لرواية " دون شخصية تقود الأحداث وتنظم الأفعال، وتعطي القصة بعدها الحكائي " (بحراوي، 2009، صفحة 20) .

وبعيدا عن مسألة ارتباط الشخصية بالحدث أو ارتباط الحدث بالشخصية التي كثر حولها الكلام واللغط والجدل، يستلزم الأمر التعريج على الشخصية وعلاقتها بالواقع والمتخيل التي طرحها توماشفسكي Tomacheviski هذه العلاقة التي تتكرس في ما أسماه بالحوافز؛ إذ يقول: "إن إدخال الحوافز إنما ينتج عن تراض بين الوهم الواقعي ومتطلبات البناء الجمالي " (لحميداني، 2000، صفحة 23)، حيث يؤكد على حاجة الشخصية إلى الحوافز لتؤدي عملا أو لتصنع حدثا أو تساعد في انجازه، مثيرا قضية التحفيز التي تقف خلف تحرك الشخصية وتفاعلها وانخراطها في القيام بالأحداث على مستوى المتن السردي.

وقد أثار بدوره فلاديمير بروب Vladimir Propp نظرية الوظائف في كتابه (مورفولوجيا الحكاية)، فالشخصية حسب بروب لم تعد " تحدد بصفاتها وخصائصها الذاتية بل بالأعمال التي تقوم بها ونوعية هذه الأعمال" (لحميداني، 2000، صفحة 25) ، حيث ربط الشخصية بالأعمال أو الوظائف التي تقوم بها بعيدا عن سماتها الذاتية، وانطلاقا من هذه الوظائف تصنف الشخصيات إلى بطل وبطل مزيف ومساعد ومعيق وباعث وشرير ومعتد.. ومن المتوقع أن تقوم الشخصية الواحدة منها بجملة من الوظائف ولا يستلزم الأمر قيامها بوظيفة واحدة.

وربط فيليب هامون Philippe Hamon الشخصية بالوظيفة النحوية التي تؤديها الشخصية في النص السردي، مصنفا الشخصيات إلى ثلاث فئات "فئة الشخصيات المرجعية وتضم الشخصيات التاريخية والشخصيات الأسطورية والشخصيات المجازية والشخصيات الاجتماعية، وفئة الشخصيات الإشارية، وفئة الشخصيات الاستذكارية " (هامون، 2013، صفحة 35. 36)، حيث انطلق من الدراسات اللسانية التي تجعل الشخصية نسقا لغويا باعتبارها مسؤولة على انتاج اللغة وتكريس النظام اللغوي، والتعبير عن مختلف الأفكار وإشراك المتلقي في هموم الشخصيات وتطلعاتها على مستوى الخطاب السردي، ليصل في تصنيفه الشخصيات إلى تحديد نوعين غير مألوفين من الشخصيات يتعلق الأمر بالشخصيات الإشارية والشخصيات الاستذكارية التي تعنى بدراستهما المقاربات والمناهج السيميائية. كما يمكن لشخصية ما في العمل الروائي أن تتواجد ضمن الفئات الثلاث السالف ذكرها.

3. سيمياء العنوان:

إن للسيمياء حضورا قويا ومكثفا في الدرس اللساني والمنجز النقدي الحديثين، وقد اعتبرها دو سوسير علما قائما بذاته يُنتظر منه بسط جذور التواصل بين الدراسات اللغوية والدراسات الاجتماعية، وهذا باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية تتكئ على نظام محكم من الأنساق الظاهرة والمضمرة، والبنى الفوقية والتحتية، ناهيك عما تختزله النصوص السردية على دلالات اجتماعية شتى تلخص ثقافة المجتمع وتكشف عن مختلف الأدواء والقضايا والموضوعات التي تشغل بال أفراده، "فقد أطلق سوسير على هذا العلم السيميولوجيا، وهي علم سيأخذ على عاتقه دراسة حياة العلامة داخل الحياة الاجتماعية" (بن كراد، 2012، صفحة 7).

كما أن السيميائيات لا تنفرد بموضوع معين خاص بها، لا يخرج عن الأنظمة والأطر والمبادئ والقواعد اللغوية المتعارف عليها في الدراسات اللسانية، بل تتعدى كل ذلك لتشمل بالدراسة والتحليل كل ما يتعلق بسلوك الإنسان ضمن محيطه الاجتماعي والثقافي، حيث " تهتم بكل مجالات الفعل الإنساني: إنها أداة لقراءة كل مظاهر السلوك الإنساني بدءًا من الانفعالات البسيطة ومرورًا بالطقوس الاجتماعية وانتهاءً بالأنساق الإيديولوجية الكبرى" (بن كراد، 2012، صفحة 15).

ويحمل عنوان رواية **"كاماراد رفيق الحيف والضياع "** ملمحا حداثيا؛ وذلك في جمع الكاتب بين لغتين اثنتين في صياغته، فـ "كاماراد" كلمة أجنبية فرنسية الأصل " Camarade " تعني الرفيق أو الصاحب باللغة العربية، وقد آثر الكاتب كتابتها بالحرف العربي

بدلا من حرفها اللاتيني نظرا لشيوع استعمالها بين الجزائريين وتعودهم عليها وارتباطها الوثيق بالإنسان الإفريقي الذي تستدعي مشاهدته كلمة "**كاماراد**" في علاقة أشبه بعلاقة الدال بالمدلول.

وتعد هذه الممارسة خرقا للمعهود، وخروجا عن المألوف في الاستخدام اللغوي، وتكريسا للتوجه الحداثي ، وتنطوي مثل هذه العنونة على تجديد وإبداع من جهة، وعلى واقعية وموضوعية من جهة أخرى، فقد دأب الجزائريون على إطلاق لقب " كاماراد" على المهاجرين الأفارقة غير الشرعيين، ويدل هذا اللقب على أن غالبية هؤلاء الأفارقة يتحدثون باللغة الفرنسية التي يتقنها الكثير من الجزائريين بحكم تعرض بلدانهم للاحتلال الفرنسي، ويمثل هذا الأمر قاسما مشتركا بينهم وبين الجزائريين، وهو ما سهّل عليهم التواصل مع فئة لا بأس بها من أفراد الشعب الجزائري.

ورغبة منه في التعريف بمعاناة المهاجر الإفريقي أورد في متن العنوان تعريفا مقتضبا مركز الدلالة لـ**كاماراد** : إنه رفيق الحيف والضياع، فبصرف النظر عن مفردة "رفيق" التي تعد ترجمة حرفية لمفردة "Camarade " الفرنسية، فإن كاماراد هو ذلك الإنسان الإفريقي الذي نشأ وشب وترعرع تحت أكناف الظلم والقهر والضياع والفقر والجور والمرض، من جميع أكواب المرارة تجرع، ومن كل أطباق العذاب وصنوف التشريد والامتهان ذاق، معاناته ولدت معه من رحم واحدة، وآلت ألا تتركه في حلِّه وترحاله وفي منشطه ومكرهه، أبت إلا مرافقته ومتابعته كظله، جارت عليه الدنيا وحاف به أهلها، كل ما حوله كان ولا يزال ضد رغبته في العيش الكريم، وحفظ ماء وجهه.

الإفريقي عنوان البؤس والشقاء والعنت والعناء، الظلم عليه قد وُزّع أشكالا وألوانا، حياته بالقهر والشتات والتشرد قد طبعت، هويته معلومة وليس هو بمنكرها، في الصبر والجلد وقوة التحمل وتحدي المشاق والصعاب يضرب به المثل، أثقل كاهله التهميش والعطالة عن العمل والفقر، ضاقت عليه بلاده بما رحبت. إنه ضحية الأقدار، ذنبه الوحيد أنه ولد في القارة السمراء وعاش في بلد مختطف لا يزال للمحتل عليه الكلمة العليا واليد الطولى، خيراته مرتهنة، ثرواته مسلوبة وهو لا حول له ولا قوة، الحيف والضياع هما ما أخرجه من بلده حيث الفقر والجهل والمرض بحثا عن النعيم المقيم وجنة الفردوس هناك في القارة العجوز التي حرمته من جميع حقوقه كإنسان في بلده الإفريقي.

4. سيميائية الشخصيات في رو اية "كاماراد":

ي مثل الاسم العتبة الأولى في دراسة الشخصية سيميائيا، وهذا لكونه أيقونة (Icon) أو علامة لغوية مؤلفة من دال ومدلول، فالأيقونة علامة تحيل إلى شيء ما تجمع بينهما سمات معينة، وقد اعتمد **الزيو اني** نهجًا واقعيا موضوعيا في اختياره أسماء شخصياته في رواية **"كاماراد"** تعكس طبيعة ثقافة المجتمع النيجري، حيث استوحاها من واقع النيجريين ومن لهجتهم المحلية القريبة نوعا ما من اللغة العربية التي تأثروا بها بحكم كونها لغة القرآن الكريم (مامادو، ادريسو، زينابو، سلاماتو...)، ويمثل هذا التلاقح بين اللغة العربية ولهجات الأفارقة المختلفة مدى تأثرهم الكبير بالدين الإسلامي الذي اعتنقه السواد الأعظم من شعب النيجر، كما يكرس التعددية اللغوية: العربية والفرنسية والهوسا واللهجات المحلية، ولهذه الأسماء مرجعية اجتماعية وثقافية ودينية ستسعى هذه الدراسة إلى إماطة اللثام عنها وإظهارها، وهذا باعتبار الشخصية " وحدة دلالية قابلة للتحليل والوصف أي من حيث هي دال ومدلول وليس كمعطى قبلي ثابت" (بحراوي، 2009، صفحة 213) .

ومن ثمَّ فالسيميائيات تعُدُّ الشخصية علامة، دالُّها مباشر هو الاسم، ومدلولها مضمر غير مباشر يتوارى خلفه العديد من الأنساق الثقافية والمعطيات الاجتماعية والسمات الهوياتية التي تشكل - في حال جمعها- معلما بارزا لثقافة الإنسان الإفريقي انطلاقا من رواية كاماراد الحبلى بالإشارات الثقافية الخاصة بكثير من شعوب القارة السمراء وليس بشعب دولة النيجر فحسب، لانحدار المهاجرين غير النظاميين (الحراقة) من دول إفريقية شتى على غرار مالي وبوركنافسو والكاميرون وسيراليون وكوت ديفوار والسنيغال...

ومن أبرز شخصيات رواية "كامارد":

أ. **"مامادو" أو" محامادو" أو"محمد":**

يمثل **"مامادو"** شخصية البطل في الرواية، واسمه تحوير نطقي لاسم **محمد** العربي الذي ينطقه أهل النيجر **" محامادو"** ، **ومامادو** تخفيف لاسم **" محامادو"**، ويطلق عليه بعض رفقائه اسم **"دودو"** كذلك، وهو تصغير لاسم **"مامادو"**، ويحمل الاسم باعتباره علامة سيميائية حمولة ثقافية معتبرة و مدلولات اجتماعية تحيل إلى ترسبات فكرية متراصة في أخاديد الذاكرة الشعبية وتمفصلات التراث الأدبي والديني الأصيل، وتعين على التعرف على ملامح الشخصية المتسمية به وتوجهاتها وميولاتها، إضافة إلى الموضوع الذي تكتنزه العلامة، حيث يضفي الاسم " دلالات معينة، ويوحي إلى ذهن القارئ. إنه علامة لغوية تجبرنا في سبيل تحديد دلالاتها على استحضار السياق النصي العام الذي حوى هذه العلامة، من مقصدية خطابية وظروف انتاجية وتوقعات مرجعية" (سعدية، 2016، صفحة 111) .

ويعد اسم **"محمد"** أكثر الأسماء انتشارا عبر العالم، ولعلامة الاسم دالٌ(ماثول) متمثلٌ في التركيب اللغوي لاسم محمد الذي يستدعي في الذهن رجلا يسمى محمدا، ومدلالات ثقافية (مؤولات) تؤصل لإسلام غالبية سكان دولة النيجر، وتؤكد مدى ارتباط الأفارقة بدينهم وشدة تعلقهم بنبي الإسلام محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وشيوع التسمي بمحمد بينهم، يضاف إلى ثنائية الدال والمدلول الموضوعُ الذي تحيل إليه العلامة السيميائية.

وقد أدى **"مامادو"** البرنامج السردي(التحريك والحافز والكفاءة والأداء والجزاء) باحترافية عالية كما اضطلع بالملفوظات السردية على حد تعبير غريماس، حيث روى على المخرج الفرنسي **جاك بلوز** أحداثا تخصه حول الهجرة غير النظامية التي قادته نحو الجنة الوهم، متكلفا عناء الانتقال من مكان إلى آخر سعيا منه إلى تجاوز حياة الفقر والبؤس والشقاء، مقتربا تدريجيا من تحقيق حلمه المأمول، ف**"مامادو"** شاب نيجري في مقتبل العمر ذو "وجه شقي رسمت عليه ثلاث وخزات أفقية على الوجنة اليمنى" (أحمد، 2016، صفحة 40) .

ولهذه الوخزات الثلاثة إشارة إلى تقديس الأفارقة للرقم ثلاثة الذي كثيرا ما نسجت حوله الحكايات والأساطير، وهو عدد له حضوره المائز في كل الديانات والملل وعند جميع شعوب المعمورة، والوخز على الوجنات أو الجباه من عوائد الشعوب الإفريقية، وتجدر الإشارة هنا إلى أن لكل قبيلة من القبائل الإفريقية وخزٌ خاص بها، وشكلٌ معين معلوم من الوشم أو الوخز في مناطق معينة من الوجه أو الجسم عموما به يميزون سكان قبيلتهم عن غيرهم من الأجانب، وهذا التقليد يعكس ثقافة الوسم أو الوشم المنتشرة عند بعض الشعوب الإفريقية.

وكان يعيش **"مامادو"** رفقة أمه **"سلاماتو"** وأخته **"زينابو"** في حي فقير بنيامي يدعى **"Gملكي"** يفتقر إلى أبسط ضرورات الحياة، وقد اضطر إلى ترك المدرسة رغم تفوقه في الدراسة وبروز علامات النجابة والتفوق عليه في وقت مبكر جدا ليتحمل مسؤولية إعالة أسرته بعد وفاة أبيه، نشأ في بيت بنيامي النيجرية أشبه بقبر، بعيدا عن جميع بهارج وأشكال التطور الحضاري الذي يشهده العالم، وكأن النيجر لا يزال في القرون الوسطى يتخبط فقي أوحال التخلف وأوضار الأمية والجهالة، ولك أن تتصور وجود أحياء بأكملها في قلب عاصمة بلادهم لا تتوفر على شبكة الصرف الصحي، يقول عن عاصمة بلده نيامي: " أكاد أجزم سعادة ضيف نيامي – مخرج فيلم كاماراد- أن منظر القمامة والهواء الملوث وحدهما القاسم المشترك بين فقراء عاصمتنا (نيامي) وأغنيائها " (أحمد، 2016، صفحة 35) ، ويشير في موضع آخر إلى عدم توفر العاصمة نيامي على قنوات الصرف الصحي، ولك أن تتخيل حجم معاناة قاطنيها .

لقد أدت به الظروف القاسية والأوضاع الاجتماعية المتدنية البالغة في السوء المنتهى إلى الهجرة نحو الفردوس الأوربي هروباً من الواقع الرزي المأساوي، والمستقبل المجهول في بلاده " كنت كثيرا ما أحدث نفسي قبل النوم وأنا مستلق على حصيري برحبة البيت، أسليها بالقول:(إن خيار وقوفك على جبل الأقرع المطل على مدينة سبته أو جبل (G وروGو) المطل على مدينة مليلية مما

تستطبُّ به عينك ويمنحك رؤية الفردوس بلا واسطة يا مخلوق ..." (أحمد، 2016، صفحة 46) ، إلا أن حلمه بالوصول إلى جنة المأوى لم يتحقق وتكسر على جدار سبتة عند الحدود المغربية الإسبانية.

وبينما هو بحي الشاطو تزاحمت الخواطر في نفسه وتهافتت ذكريات رحلته الشاقة على ذهنه فشرع يقلب صفحات ذاكرته ويتصفح هوامش يومياته يقول: " كنا نحن الرفاق الثلاثة جالسين على الحصيرة دخل أولاً ثلاثة شباب ليكاماراد يحمل أحدهم في يده خمس خبزات والآخر كيساً بلاستيكياً أصفر شفافاً يظهر فيه أرز، علبة جبن، قارورة ياغورت، الثالث كان يحمل بيده علبة شاي صغيرة لم أتبين علاماتها التجارية، أخال وزنها (250غ)" (أحمد، 2016، صفحة 215. 216)، ويدل هذا على قوة ملاحظة الإنسان الإفريقي الذي يرصد جميع تفاصيل الأشياء من أول نظرة ما يؤكد حرصه الشديد على الاطلاع على كل الخبايا وفضوله الكبير وتطفله واستغرابه بعض السلوكات والتصرفات غير المعهودة في بلده.

كما عرف البطل بحب الرقص و تميز عن غيره من رفاق دربه بترديده نغمة فرحه "أي صابو أي صابو " (أحمد، 2016، صفحة 116. 172. 155) ،كلما غازلته مسرة أو لاحت على أسارير وجهه بهجة، وجرت سفنه كما كان يرجو ويشتهي، أو طرب لنجاح مهمة، حيث كان يطلق هذه العبارة مصحوبة برقصة شعبية افريقية تعبيرا عن سروره واغتباطه.

وكان دائم التفكير في أمه وأخته، والحنين إليهما أثناء رحلته إلى الفردوس، ما يعكس تعلقه الكبير بعائلته ومتانة الأواصر التي تربطه بأفرادها، وحرصه الشديد على صلة رحمه ورضا أمه عليه، ورفقه بشقيقته وحنوه عليها، فهو عائلهما وراعيهما وحاميهما، وحتى إن كان بعيدا عنهما فهو لا يزال منشغلا بهما مفكرا فيهما، ويدل هذا على تشبعه بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف الذي يحض على الإحسان إلى الوالدين والبر بهما ولأن رضاهما من رضا الله تعالى وتقديسه للوشائج الأسرية، وها هو بالرغم مما يمر عليه من صعاب يجتهد في الاتصال بهما والاطمئنان عليهما " ألو ..أمي كيف حالك .. الدموع تتجمع في مقلتي .. الحمد لله اطمئن يا "دو" أختك صارت تعمل وتجلب القوت .. الحمد لله يا أمي" (أحمد، 2016، صفحة 210) .

إن الإفريقي لا يتورع عن ارتكاب المخالفات القانونية من نحو ما أقدم عليه مامادو ورفقاؤه من تزوير جوازات السفر، واشتغال مامادو ببيع الأوراق النقدية الأجنبية المزورة (اليورو)، حيث تمكن من تسويق مبلغ معتبر منها، واستطاع أن يخدع مواطنا جزائريا من ولاية تمنراست، وهو ما يدل على ضعف الوازع الديني عنده، واستعداده لإلحاق الضرر بالآخرين لأجل مصلحته، لا لشيء إلا لإيمانه بمنطق "الغاية تبرر الوسيلة"، ولهذا أجاز لنفسه خداع الجزائريين واستغلال حاجتهم الماسة إلى (اليورو)، وخاصة أولئك الذين يتأهبون لزيارة بيت الله الحرام لأداء مناسك العمرة.

ب. سلاماتو:

هي أم البطل "مامادو" ، واسمها قريب من الأسماء العربية: سلام وسلامة وإسلام وسلمى.. ويتكون من مقطعين: (سلام) و(تو)، ويحمل اسمها مدلول الأمن والاستقرار والمهادنة والطيبة والمحبة والسلم واللطافة والرقة، يصفها مامادو قائلا :" ليس لأمي خصيصةٌ تميزها عن نساء (Gملكي) سوى قرط حديدي دائري مغرز في فتحة منخر أنفها سيف اليمين، قالت لي عندما كنت صغيرا: إنها عادة من عوائد نساء قبيلتها "بورورو " ..." (أحمد، 2016، صفحة 40)، فقد جرت العادة بين نساء هذه القرية على وجه الخصوص وضع الأقراط بأنوفهن، وهو مظهر من مظاهر ثقافة المرأة الإفريقية التي تعتقد أن موضع القرط الأمثل إنما هو الأنف وليس الأذن، ويرجع هذا العرف إلى ما كان ذائعا بين قبائل الهوسا النيجرية، كما يذكر أنها من خرافات وأساطير شعوب إفريقيا، ولكن مع الوقت تخلى بعض النسوة عن هذه الأقراط، فظهرت البشاعة على ملامحهن، وهو ما دفع أباه أن يطلب منها أن تحتفظ بحلقاتها في مكانها لتحافظ على أناقتها، وهذا التقليد شائع بين النساء المتزوجات دون الأبكار منهن؛ حيث لم يشر مامادو إلى وضع أخته "**زينابو**" الأقراط في منخريها بدلا من أذنيها.

وسلاماتو هي الأم الحنون الرؤوم تحملت عبء الحياة القاسية بعد أن مات عنها زوجها، وهاجر ابنها نحو أوروبا يصف "مامادو"لحظة الوداع :" تعانقنا كثيرا .. حتى غاب رأسي بما يحمل في رقبتها وصدرها ، الحق يذكر، أفرغنا قرب عبراتنا في تلك

اللحظة " (أحمد، 2016، صفحة 103) ، ويقول عن التخفيف من حرقتها :"كما خلق الفراق والوداع جعل إلى جنبهما أمل اللقاء " (أحمد، 2016، صفحة 102) .

وإيمانها بعودة ابنها ثمرة فؤادها سالما غانما من رحلته المجهولة لم ينقطع ولم يضعف، وكانت فرحتها بعودة ابنها من الهجرة سالما عارمة، ولطالما كانت تردد: "سيرجع ابني "مامادو" سالماً .....لأن لي من اسمي سلاماتو نصيباً " (أحمد، 2016، صفحة 28) ، وهي بقولها إن لي من اسمي نصيبا إنما تكرس المقولة الشائعة بين الناس: لكل من اسمه نصيب، فالفأل الحسن أو التفاؤل شيء محمود بين الناس ويقال في هذا الصدد كذلك: اسم على مسمى، ومما درج عليه البشر، وانتشر بينهم الاستبشار بالاسم الطيب الحسن المعنى، الأمر الذي من شأنه أن يؤشر لملمح من ثقافة الإفريقي المتمثل في استحسان الأسماء ذات الدلالة الجميلة الفاضلة، والتبرك بالأسماء الحسنة، ولذلك شاع بين أوساط الأفارقة التسمي بأسماء الأنبياء والمرسلين والصالحين والأسماء التي تحمل مدلولات خيرية طيبة.

ت. إدريسو:

اسمه محور عن اسم نبي الله (إدريس)، حيث أضيف إلى آخره حرف الواو تماشيا مع لهجة قبائل الهوسا النيجرية، ويشير هذا الاسم على إسلام والد ادريسو الذي سمى ابنه باسم أحد أنبياء الله، وهو ما يؤكد انتشار الإسلام الكبير بين عموم الشعب النيجري، وإدريسو صديق "مامادو " المخلص في حي "Gملكي " ورفيق دربه في هجرته نحو أوروبا، وتعلقه به كبير، وكثيرا ما كان يلتقيان ليلا للتسامر وتبادل أطراف الحديث والتعبير عن تبرمهما من العيش المضني في حيهما الفقير، وقد نعته بالكثير من الصفات الحميدة على غرار الإخلاص والوفاء والقيادة ومحرك رفاقه نحو الهجرة، وكان المرشد والموجه في رحلتهم، قال عنه" مامادو" :"إدريسو كثر الله من أمثاله، رغم حصوله على الجواز المزور كان قلقا معي لعدم وجود شبه مورفولوجي لي بالجوازات الجاهزة شاركني هواجسي...صرح لي هذا الأخير أنه لن يهاجر إلا معي...وإن لم يأت جوازي فسيبقى معي حتى محاولة الهجرة العام القادم ...قلت بعدها في تلافيفي: رفيق كإدريسو لا تستعيضه حتى بالتبر ورفيق كساكو تبعه بقطعة زطلة " (أحمد، 2016، صفحة 286) ، وذكرُ **مامادو** لـ (الزطلة) هنا يشير إلى تعاطيه لها من حين إلى آخر، غير أنه لم يصل إلى حد الإدمان عليها، إضافة إلى دلالة احتقاره لها بقدر احتقاره لرفيقه ساكو الشحيح الأناني.

وتجدر الإشارة هنا إلى استعداد المهاجرين الأفارقة لتعاطي مختلف أنواع المسكرات والمخدرات وارتكاب مختلف المخالفات والمحظورات والآثام لتحقيق هدفهم المنشود واشباع نزواتهم ورغباتهم، وخاصة المسيحيون منهم في مقابل اكتفاء الذين يدينون بالإسلام منهم بتدخين سجائر الزطلة وتعاطي بعض أنواع المخدرات المصنعة يدويا.

ث. ساكو:

هو أيضا رفيق "مامادو " يصفه بأنه بخيل ولئيم، وبأنه أناني غريب الأطوار، ويلومه اللوم الشديد على تفريطه بصحبتهما، وارتمائه في أحضان كايطا وإيثاره لصحبة هذا الأخير على صحبة رفيق حيه ودربه مامادو، تتوقف رحلته مع "مامادو" في مدينة تمنراست حيث استقر بجمع الكامارادي كايطا (حي الشاطو) ، ويحمل اسم ساكو معاني الغدر واللؤم والخطر والخيانة والمزاجية والتحول.

يقول عنه البطل **مامادو**: "أصبحت أحس بنوع من القلق في هذا المقام لا أدري كيف ربي هذا الشعور عندي بهذه الوتيرة المتسارعة؟ ما زاد هذا الاحتقان طريقة ساكو البدائية في نكران ملح السنين وعِشرة الأعوام، يُعمى بصره مع مصالحه، يبيعك ببصلة حمراء كبصلة ضفة نهرنا ..عندما يجد جَدَاء في الطرف الآخر " (أحمد، 2016، صفحة 278) ، وساكو بهذا الوصف مثال الصديق الانتهازي الميكافيلي المقدم مصلحته على مصالح غيره، الذي لا يرى الخير خيرا إلا إذا كان خيره، ومن كان بمثل هذه المواصفات من الأصدقاء فالأولى تجنبه وتركه.

ج. أليكس:

هو القائد المنقذ والحكيم المدبر للرحلة، خبير بمسالك الهجرة ومقارعة السماسرة المهربين فقد سبق له تجريبها من قبل، وهو الذي كان وراء حصول مامادو ورفقائه على جوازات السفر المزورة ، والمسؤول عن إيجاد الملجأ والملاذ للرفاق وإيصالهم جميعا إلى نقطة النهاية، يقول فيه البطل: " تقدم الإيڤواري أليكس بخطوات متأنية تدل على ثقة، نحو السماسرة الثلاثة المتحلقين .. وكيلنا ثلاثيني معتدل الطول مستل الرقبة قليلا، يعلق في رقبته صليبا .. كنت واثقا به جدا في قرارة يقيني والله .." (أحمد، 2016، صفحة 126) ، وهو شخص نزيه وضعوا فيه ثقتهم في أحلك الظروف التي مروا بها في قلب الصحراء الكبرى ، ويبدو من تعليقه الصليب في رقبته على أنه يدين بالنصرانية.

ح. كايطا :

مالياني (ينحدر من دولة مالي) مكلف بمخيم "ليكاماراد " المسمى بالشاطو نواحي مقطع الواد بتمنراست، وهو صديق حميم ووفي لإبراهيما السينغالي، قال عنه"مامادو" "...بعد دقائق قليلة خرج لنا شاب ثلاثيني ،طويل معتدل مع عرض بين الأكتاف، يلبس سروال جينز أزرق فاتحا وقميصا رياضيا أصفر...ظهر لي من الأول أن كايطا شخص حبوب ومرح، بينما نحن وقوف في تلك اللمة قبل دخولنا أعطانا هذا الأخير لمحة عن الحي وقاطنيه من سلالة ليكاماراد " (أحمد، 2016، صفحة 195)، ويتمتع كايطا بروح مرحة، ونفس كبيرة تسع الجميع يهش ويبش في وجوه الكل، ولا يكاد يُرى عابسا مقترا، لا يخلو حديثه من الدعابة والفكاهة، وهو ما حمل كل المتواجدين بالمخيم الذي يديره على حبه واحترامه، يعرف حق القريب والصديق عليه ويحفظ المعروف والود لأهلهما، ولا يحجم عن مساعدة المحتاجين إليه من نظرائه الأفارقة، الذين يتعامل معهم بكل إنسانية ونبل وعطف غير مكترث بجنسياتهم ومعتقداتهم وأصولهم وانتماءاتهم المتباينة، يسدي له النصح ويبذل لهم الخير وكأنهم إخوانه بحق، فما دام الطموح واحدا والغاية واحدة فهم سواء وسيان، ولهذا تبرز معاني وقيم التآخي والتكافل والتضامن فيما بينهم في تجمعاتهم.

إن تعظيم الإفريقي وتقديسه للأوروبي وإحاطته بالحفاوة الزائدة في الاستقبال والمبالغة في الترحيب به وإطرائه ومخاطبته بسيدي ورئيسي و(mon patron) وغيرها من الألقاب لمنقصة ومثلبة للإفريقي الذي لايزال يعتقد بتفوق الإنسان الأبيض عليه، وهذا يعكس دونيته ووضاعته أمام الأوروبي الذي كان بالأمس القريب يحتل وطنه، وهو اليوم من يقف خلف فقره وتخلفه، فكيف يرضى الإفريقي(سائق سيارة الأجرة ونادل الفندق) بمثل هذه المعاملة من المخرج الفرنسي التي تنم عن تعالٍ وتكبرٍ وتقليل من قدر الأفارقة وشأنهم مع ما تنطوي عليه تصرفاته نحوهم من معاني الامتهان والإذلال والاحتقار، ولعل ذلك راجع إلى نشأوا عليه وما تشتمل عليه ثقافتهم من كون الإنسان الأوروبي أذكى وأرفع من ابن القارة السمراء الذي تعوَّد على القهر والاستعباد والظلم.

وتعد شخصية "مامادو" شخصية محورية فاعلة، فهو إلى جانب كونه بطل الرواية صاحب الحضور المتميز، المحرك لعجلة الأحداث، لا يعلو صوت على صوته، هيمن على الرواية وأخضع أحداثها لسلطته فكانت باقي الشخصيات له تبعا وعضدا، وهذا من خلال يومياته التي سردها قبل هجرته، ومغامرات رحلته التي قصها على المخرج الفرنسي، ناهيك عن الحوارات التي أدار رحاها مع باقي الشخوص.

أمّا ما تعلق بباقي الشخصيات الأخرى فكانت شخصيات ثانوية، ولهذا جعلها الروائي خادمة للشخصية المحورية (مامادو) تساعده في حِلّه وترحاله، وترافقه في انتقاله من مكان لآخر أثناء رحلته، وعلاقتها به كما تكشف عنه الرواية وثيقة ووطيدة.

5. أبعاد الشخصية:

وتختزل الشخصية العديد من الأبعاد على غرار البعد الجسدي(المادي) والبعد الاجتماعي والبعد النفسي، وهذه الأبعاد تعين على فهم تصرفاتها وتوقع ما ستقدم عليه أو كيف سيكون رد فعلها؟ وتظهر أهميتها في المقاربة السيميائية في إبراز رؤية الشخصية وهويتها ومستواها العلمي والثقافي وتفسير ما تضطلع به من أحداث وما يصدر عنها من تصرفات، وتساعد الروائي على تكريس ما يصبو إليه في عمله الروائي من اتساق وانسجام واكتمال، فالمؤلف يرسم شخصيات عمله السردي كما يريد ويشتهي وفق تصوره

الخاص، أي أنه يعطي لها صفات مميزة ومحددة طبقا لما هو متهيء في ذهنه، غير أن هذه الأبعاد تقتضي خصوصية معينة يجب عليه مراعاتها، فلكل شخصية مميزات جسدية واجتماعية ونفسية خاصة، يصطلح عليها في المقاربة السيميائية بالأبعاد الأيقونية.

1..5 البعد الفيزيولوجي:

يقصد به البعد المادي وهو دراسة جميع الخصائص الجسمية، ويطلق عليه أيضا البعد الجسمي ويشتمل على الطول والوزن والجنس (ذكر ،أنثى) والعمر ولون البشرة، وكل ما يتعلق بالملامح الجسدية المادية للشخصية كالعرج والعمى والإعاقة، ولعل تحقيق هذا البعد الخارجي الفيزيولوجي للشخصية لا يتحقق إلا إذا ألم الروائي وأدرك ما بين شخصيات عمله الروائي من تباين وتوافق، وهنا يجعل لكل منها دورها في النص الروائي، ومتى تحقق هذا الدور اكتملت أبعاد الرواية ،كما يكون " بوصف المظاهر الخارجية للشخصية القصصية (من شكل وملبس) ليدل الكاتب على نفسية الشخوص وحالتهم الاجتماعية.." (أبو شريفة و قزق، 2008، صفحة 136)

ويتجسد هذا البعد الفيزيولوجي في شخصية مامادو الشاب النيجري الأسود ذي الطول الفارع الذي يحمل وجهه ثلاث وخزات على وجنته اليمنى، إضافة إلى ثيابه الرثة وشعره الأجعد وهزل جسده، أو بالأحرى الإنسان الإفريقي الفقير الذي أرغمه ضيق العيش والفقر وتخلف وطنه وعطالته عن العمل إلى الهجرة غير الشرعية واقتحام أهوال الصحراء مستهينا صعابها وتضاريسها الوعرة، معرضا حياته إلى الخطر والهلاك. كل ذلك ما كان ليتم لولا قوته الكبيرة على تحمل العناء والجوع والعطش.

2..5 البعد السوسيولوجي (الاجتماعي):

ويعنى هذا البعد بدراسة منشأ الشخصية وبيئتها وثقافتها وولادتها وتربيتها ودرجة ثقافتها، وإن كانت متعلمة أم جاهلة، ومنزلتها الاجتماعية (فقير، غني).وهو في الأساس" يتمثل في انتماء الشخصية إلى طبقة اجتماعية، وفي نوع العمل الذي يقوم به في المجتمع وثقافته ونشاطه وكل ظروفه التي يمكن أن يكون لها أثر في حياته وكذلك دينه وجنسيته وهواياته.." (أبو شريفة و قزق، 2008، صفحة 133)

كما يشمل البعد الاجتماعي القيم والمبادئ التي يستقيها الفرد من بيئته والمجتمع الذي يعيش فيه، وهي بالضرورة تجري تعديلات على سلوكه لكي يستطيع التعايش مع هذه البيئة، بالإضافة إلى عنايته بالطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها الشخصية واهتماماتها وميولاتها وعلاقاتها الاجتماعية وحالتها الاجتماعية ومكانتها الأسرية، ويسعى الكاتب الروائي إلى إبراز تباين شخوصه السردية من خلال تسليطه الضوء على الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بينها .

ويكتنف رواية "كاماراد" قضايا اجتماعية عدة، فهي تعالج قضية الهجرة السرية عند الأفارقة وواقعهم المزري في بلدانهم، وما يتعرضون له من تهميش وفقر وظلم، وما يعانون منه من البطالة والجهل، وتأثير البيئة عليهم والأوقات القاسية التي مرت عليهم، فلا أمن ولا استقرار ولا عيشة هنية في ظل التهميش المسلط على "مامادو" ورفاقه على درب الفقر والمعاناة، وما ينتشر بين الأفارقة في تجمعاتهم ومخيماتهم بأدرار وتمنراست الجزائريتين من دعارة وفاحشة ومثلية.

3..5 البعد السيكولوجي (النفسي):

ويهتم البعد السيكولوجي بكل ما يتعلق بالجانب الداخلي للشخصيات، فيظهر جانبا من أفكارها وأحاسيسها، وبعض ما يشتمل عليه باطنها، كما يساعد على التعقيب على بعض تصرفاتها وتفسير بعضها الآخر، ويحسن بالكاتب أثناء وصفه الشخصيات أن يمنحها فسحة للتعبير عن نفسها وعن حاجاتها ومكنوناتها، ولهذا البعد النفسي ارتباط وثيق بالبعدين الجسمي والاجتماعي ، ويبحث " في الاستعداد والسلوك ، من رغبات وآمال وعزيمة وفكر، وكفاية الشخصية بالنسبة لهدفها، ويشمل أيضا مزاج الشخصية من انفعال وهدوء، وانطواء وانبساط.." (أبو شريفة و قزق، 2008، صفحة 133)

ولهذا يُعد البعدُ النفسي أهم بعد يستند إليه الكاتب للتعرف على الشخصية وتحليل سلوكياتها، والكشف عن خوالجها ولواعجها، واشتغاله بمكنونات النفس الإنسانية وعقدها ومكبوتاتها التي يختزنها اللاشعور، فضلا عن عنايته بالجوانب الوجدانية والانفعالية التي تمثل أبرز مرتكزات منهج التحليل النفسي.

ففي رواية كاماراد تظهر شخصية" مامادو" في صورة الشاب الشقي الذي أدت به الأوضاع الاجتماعية والظروف القاسية إلى الهجرة غير الشرعية هروبا من الواقع المسدود وشظف العيش وتداعي الأوضاع الاجتماعية والسياسية في بلده النيجر الذي يعاني شعبه الأمرين جراء تفاقم المشكلات وتعقد الأزمات التي تهدد أمنه واستقراره، فالشعب على صفيح من نار والوضع شديد الاحتقان والانفجار قاب قوسين أو أدنى وفتيل التمرد والعصيان قد يشتعل في أي لحظة، ومهما يكن من أمر ف"مامادو" ما انفك يحدث نفسه بالرحيل عن حيه الفقير G مكلي بنيامي وخوض غمار رحلة تقوده إلى ما يحلم به من النعيم والرفاهية، وهو مستلق على حصيره برحبة البيت.

مامادو شاب جلد صبور قوي الإرادة والعزيمة والشكيمة، لا تهصر مهجته المخاطر ولا تثني من عزيمته الشدائد، شديد الملاحظة كثير التدقيق يصف كل ما تقع عليه عيناه وصفا دقيقا، وكان دائم التفكير بأمه وأخته والشوق إليهما وهو في طريق رحلته المحفوفة بالمخاطر إلى الفردوس المفقود حيث قال: "لا أدري كيف تذكرت أمي وأختي هذه الليلة، وما يكون من أمرهما هذه اللحظة. أقرب الظن أني لمست بحالة لا شعورية تميمة (Gونكي) ، كلما تحسستها أتذكر أمي" (أحمد، 2016، صفحة 126)

6. الخاتمة:

وقد خلصت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية:

- تعدُّ الشخصية مجمع بحور عناصر السرد المتنوعة، وقطب رحى المكون السردي، ومركز ثقل العمل الروائي، فهم أبعادها وتحليل أفعالها يعين على فهم موضوع الرواية، واستيعاب مراميها.
- سيمياء الشخصية تعين على الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة في المكون السردي.
- محدودية تفكير الإفريقي وقصر نظره، وذلك لإيمانه بالخرافات وتصديقه للأساطير.
- اتخاذ الإفريقي التمائم والخرز لطرد الأرواح الشريرة والشياطين والشؤم والشر واستجلاب الحظ الجيد ملمح ثقافي بارز.
- ضعف الوازع الديني عند عموم الأفارقة الذين يدينون بالإسلام.
- تدين الأفارقة شكلي ظاهري، يخضع لسلطان العوائد والتقاليد السائدة، وهو أقرب إلى التدين الموروث، حيث ينسبون أنفسهم إلى الإسلام جزافا في وقت لا يؤدون فيه أوجب فروضه كالصلاة التي تعد عمود هذا الدين، ولا يلتزمون بأبسط تعاليمه وقيمه، فتجدهم يحترفون الشعوذة ويخدعون الناس ويكذبون عليهم بكل صفاقة وسماجة.
- أمام غايات الأفارقة وطموحاتهم تهون الوسائل وتتهاوى القيم والأعراف الإنسانية النبيلة، متبنين في ذلك الفكر الماكيافيلي، متحملين في سبيل تحقيق أحلامهم شتى المشاق والصعاب، إضافة إلى احترافهم التسول، وما عُرف عنهم من قوة العزيمة والصبر.
- تعاطي الخمور والمسكرات والمخدرات والحشيش شائع بين الأفارقة الذين لا يتورع غالبيتهم الساحقة عن ارتكاب الحرام واقتراف الآثام، حيث ينتشر الخبث والعهر والاتجار بالقنب الهندي في تجمعاتهم.
- محافظة الأفارقة على أواصر الرحم والصداقة ووفاؤهم لأهليهم وأصدقائهم، وتقديمهم يد العون لبعضهم البعض، وتجردهم من بعض أشكال التمييز على أساس المعتقد والانتماء والجنسية، فالمهاجرون الأفارقة المتواجدون بالجزائر وإن كانت جنسياتهم ولغاتهم مختلفة إلا أنهم يشكلون فصيلا متلاحما متراصا فيما بينهم تغيب فيه الفوارق العرقية والقبلية، مع وجود بعض التقاليد الخاصة التي تميز كل مجموعة عن غيرها.

- الفقر المدقع والتخلف وتداعي الأوضاع السياسية وتدهور ظروف العيش في بلدانهم هي ما حملت غالبيتهم على الهجرة غير النظامية.
- القذارة المنتشرة في تجمعاتهم السكنية تشي بعدم عنايتهم بنظافة أبدانهم ومحالهم، وتعودهم على الوسخ واستمرائهم الدرن.
- تمثل الشخصية بؤرة العمل الروائي، وشخصية "مامادو" هي الشخصية المحورية في رواية كاماراد.
- خصوصية الثقافة؛ إذ لكل مجتمع إفريقي ثقافته الخاصة به التي تتمايز وتتباين عن غيرها من ثقافات المجتمعات الأخرى؛ فثقافة النيجيري تختلف عن ثقافة البوركنابي وهكذا.
- يبرز في الرواية تأثر الأفارقة الكبير بثقافة العرب ولغتهم، ويتجلى ذلك في الأسماء التي يتسمون بها، فغالبيتها ذات أصول عربية على غرار مامادو وزينابو وسلاماتو وإدريسو، كما يبدو تشبثهم الكبير بالدين الإسلامي الذي يدين به غالبية سكان دول الساحل الإفريقي، والذي وقف ولا يزال واقفا خلف مغادرتهم بلادهم وتعريضهم حياتهم للخطر هو تدهور الأوضاع على مختلف صُعد الحياة في بلدانهم، وكثرة الحروب وانتشار الفقر والجهل فيها ما نجم عنه غياب الاستقرار السياسي والاجتماعي.
- تعد رواية "كاماراد" واحدة من أبرز الأعمال الأدبية رقيا، عكست مدى تطور الرواية العربية في الجزائر من جهة ، وعلو كعب صاحبها: الحاج أحمد الصديق، وتميز قلمه الإبداعي وحسه التعليمي الحاضر بقوة فيها من جهة أخرى.
- عالجت الرواية موضوع الهجرة السرية نحو الفردوس الأوروبي، الذي يعد موضوعا جديدا في المكون السردي في الجزائر، حيث استطاع الكاتب تصوير واقع الشعوب الإفريقية التي تعاني من الجوع والفقر والمرض والتهميش والحرب.
- شخصيات رواية "كاماراد" متباينة ومتنوعة؛ نظرا لتباين البلدان التي تنحدر منها، وقد أضفت الحيوية والديناميكية على أحداثها وأسهمت في تنامي الصراع الدرامي وتعميقه. كما تظهر عناية الكاتب البالغة بالناحية المورفولوجية لشخصياته من خلال وصفه الدقيقة لأجسامها وملابسها وألوانها وحركاتها.

7. قائمة المراجع:

- الصديق حاج أحمد. (2016). كاماراد رفيق الحيف والضياع (المجلد ط1). عمان الأردن: دار فضاءات للنشر والتوزيع.
- حسن بحراوي. (2009). بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- الشخصية) (المجلد ط2). الدار البيضاء المغرب: المركز الثقافي العربي.
- حميد لحميداني. (2000). بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي (المجلد ط3). الدار البيضاء المغرب: المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع.
- سعيد بن كراد. (2012). السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها (المجلد ط3). اللاذقية سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- عبد القادر أبو شريفة، و حسين لافي قزق. (2008). مدخل إلى تحليل النص الأدبي (المجلد ط4). عمان الأردن: دار الفكر ناشرون وموزعون.
- فيليب هامون. (2013). سيميولوجية الشخصيات الروائية (المجلد ط1). (سعيد بنكراد، المترجمون) اللاذقية سورية: دار الحوار والنشر والتوزيع.
- نعيمة سعدية. (2016). التحليل السينمائي والخطاب (المجلد ط1). إربد الأردن: عالم الكتب الحديثة.